



معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 14 فيفري 2023

تاريخ القبول: 2023/06/15

Printed ISSN: 2352-989X

Online ISSN: 2602-6856

التمثيل التاريخي وخطاب الذاكرة في رواية "مملكة الزيوان" للصدوق حاج أحمد

*Historical representation and memory  
discourse in the novel "The Kingdom of  
Ziwan" by the friend Haj Ahmed*

كرمة بورويس\*

جامعة محمد الصديق بن يحيى . جيجل (الجزائر) karima.bourouis@univ-jijel.dz

الملخص:

لا شك أن أهم ما استهدفته رواية "مملكة الزيوان" لصاحبها (الصدوق حاج أحمد) بخطابها المضمّر، هو إعادة تشكيل الوعي بالهوية "التواتية" والصحراوية بشكل عام، تمهيدا لعملية مركزة مضادة، تتيح للتاريخ الذي لم يُستحضر، وللذاكرة التي لم تُكتب على مستوى الدوائر الرسمية والمؤسسية أن يظهرها ويقولها كلمتيهما. تستعيد رواية "مملكة الزيوان" تجربة الإنسان التواتي / الجنوبي / الصحراوي الممتدة إلى مئات السنين، لتقاربها أركيولوجيا وثقافيا وتاريخيا، لكن داخل نسق تخيلي أدبي يتناص في كثير من تقنياته وتفصيله مع الشكل السيري . إشكالية هذه الورقة تتمحور إذن حول مسألة التمثيل التاريخي، وحول الذاكرة التواتية وأشكال استعادتها على مستوى الخطاب الثقافي السائد، وموقف المتخيل الروائي من هذه التمثيلات.

**الكلمات المفتاحية :** التاريخ . الذاكرة . التمثيل التاريخي . مملكة الزيوان . السرد المضاد

**ABSTRACT**

There is no doubt that the most important goal of the novel "The Kingdom of Ziwan" by its author (Siddiq Haj Ahmed) with its implicit discourse is to reshape the awareness of the "Tawatian" and desert identity in general, as a prelude to a counter-centered process that allows for the history that was not evoked, and for the memory that was not written at the level of For official and institutional circles to appear and say their words, the novel "The Kingdom of Ziwan" restores the experience of the Tuati / southern / desert man that extends back hundreds of years, due to its closeness archaeologically, culturally and historically, but within a literary imaginary system that intertwines in many of its techniques and details with the biographical form.

The problematic of this paper, then, revolves around the issue of historical representation, and about the latent memory and the forms of restoring it at the level of the prevailing cultural discourse and the position of the fictional novelist regarding these representations.

**Keywords:** history, memory, historical representation, Ziwan kingdom, counter-narrative).

## 1. المقدمة:

في رواية "مملكة الزيوان" لصاحبها (الصدّيق حاج أحمد) تحضر النسخة المجهولة للتاريخ التوّابي لتفرض نفسها بكل وثوقية وقوة على المتلقي، وتقدم نفسها بوصفها النسخة المعدلة الصحيحة واجبة التصديق؛ لأن موادها مستلهمة من جوف المتون، ولأن محتوياتها مقتبسة من بطون المخطوطات وعيون المصادر الوازنة والمعتدّ بها في أدبيات المعرفة التاريخية. في ثنايا هذه الرواية يقف سؤال التاريخ، وتنتصب إشكالية الذاكرة ليواجهها مع الذات الكاتبة التي ستعمل بكل ما أوتيت من حكمة وتبصر، على كشف الحقائق المغيبة، وستسعى بكل طاقاتها التخيلية وإمكاناتها الإبداعية إلى استعادة الذات المعنية بتاريخ "التوات" وذاكرتها المقصية .

ليس لأحد أن ينكر أن ثقافة "التوات" كغيرها من ثقافات الجنوب، ظلت قضية هامشية مركونة في زوايا الخطابات، ومبعدة عن السياسات القولية واللغوية ذات المنحى الثقافي في الجزائر وفي غيرها، وما من خطاب له سلطة الكشف والتعريف مثل الخطاب الأدبي، وما من جنس أدبي يقدر على ممارسة هذا الفعل كأعمق ما تكون الممارسة من التخيل الروائي.

وليس في ذلك مما يضير الحقيقة أو ينافيها؛ فما أكثر ما أظهره المتخيل من حقائق، وما أفزع ما فضحه من جرائم، وما أبدع ما أسفر عنه من نصوص ونماذج روائية كان لها بالغ الأثر في تبديد الأوهام والأباطيل التي سرت بين الناس، وداخل أنساقهم الثقافية السائدة مسرى الحقيقة.

ومع علمنا بأن للحقيقة وجوه كثيرة، ومستويات عدة للتلقي، نفهم قدرة الرواية على الإنصات إلى كل تلك الوجوه والمستويات، وإدراك الجوانب الخفية منها، مع اعتماد المصادر الموثوقة لها. وإن إحدى أهم المصادر الموثوقة لمعرفة ثقافة "التوات" هي الذات "التواتية" نفسها.

لقد أتاحت رواية "مملكة الزيوان" للذات "التواتية" الممثلة للهامش الجنوبي أن تنطق، وأن تفصح عن نفسها من غير حجب أو وسائط. وقد اقتضى ذلك أن تتعاطى مع التاريخ على غير الوجه المعطى والجهاز، فعمدت إلى إعادة بنائه انطلاقاً من موقف نقدي وتأويلي يتعيّن استدعاء ما وراء التاريخ، أي التاريخ المسهوّ أو المسكوت عنه، وتلك هي أطروحة الرواية.

وفي حال كان السؤال متعلقاً بالتاريخ والذاكرة والهوية، وبالهامشي و المركزي، وبالمسكوت عنه واللامفكر فيه، فإن مقولات مابعد الكولونيالية والنقد الثقافي مع آليات الحفر والتفكيك والتأويل هي المداخل والأدوات المنهجية المناسبة للدراسة، أما من ناحية المهاد النظري الذي تعول مقاربتنا عليه فهي مجموع التصورات التي تقدم بها كل من (بول ريكور) و (هايدن وايت) حول التاريخ والذاكرة وتمثيلاتها السردية، على اعتبار أن هذين المفكرين هما أكثر من أفاد في توثيق العلاقة بين التاريخ والسرد المعاصر .

## 2. عن مصطلح التمثيل التاريخي:

يعتبر (هايدن وايت) مع (بول ريكور) . كما قلنا . رائدين في مجال الجمع بين الكتابتين التاريخية والسردية، وذلك من منطلق أن المؤرخ وهو يعرض مادته، لا يستطيع أن يفعل ذلك خارج الإطار السردى ، وتدليلا على ذلك استحضرت (وايت) مثال الحوليات التاريخية الفرنسية واتخذته شاهدا على النموذج السيئ للكتابة التاريخية التقليدية المفتقدة للمكون السردى، والمكتفية بكتابة الأحداث و ترتيبها ترتيبا كرونولوجيا دون عناية بالعلاقات بينها (هايدن و الياسين، 2017، صفحة 39).

إن التاريخ وفق هذا النموذج. لم يتم حبه و لا تسريده، وكانت النتيجة تاريخا ناقصا عامرا بالفجوات والفراغات، فأحداثه لاستقلاليتها وانفصام الوشائج فيما بينها غير مفسرة ولا مفهومة (هايدن و الياسين، 2017، الصفحات 35-36)، بينما الشكل المثالي للكتابة التاريخية . حسب وايت . هو الشكل السردى؛ ذلك أن السردية وحدها هي ما تصير خطابا تاريخيا ما ممكنا وواقعا إلى حد معقول. (هايدن و الياسين، 2017، صفحة 45)

و بمجرد أن يأخذ محتوى ما أيا كانت طبيعته أو غاياته، شكلا سرديا يصبح من وجهة ما، خطابا غير متناف مع الخطاب التخيلي ، وهنا ابتدع (وايت) مصطلح "التمثيل التاريخي" الذي يعبر عن "محتوى الشكل" السردى؛ أي التاريخ، أو "شكل المحتوى" التاريخي؛ أي التخيل الأدبي (هايدن و الياسين، 2017، صفحة 23).

وحيث يستحيل الفصل بين الشكل (الأدبي/ السردى) و المحتوى ( التاريخي) تصبح العبارة الأنسب هي "شكل المحتوى" ( وهو نفسه عنوان كتابه التأسيسي حول هذا الموضوع) أو "محتوى الشكل" ، أي تسريد التاريخ .

في الخطاب السردى يحضر التاريخ كمادة لها طابع الحقيقة، لكنها تتخذ شكلا فنيا هو نتاج عملية التحريك التي تستدعيها الدواعي التنظيمية للبنية المعرفية، وتتطلبها الوظائف التواصلية الإبداعية للغة الكتابة، وهنا وفي أثناء دخول الحقيقة التاريخية عالم اللغة، ستظهر إمكانات التعدد على مستوى الحقيقة، كما ستتجلى خيارات عدة للتمثيل تخرج بها عن دائرة أحادية المعنى. ويحدث هنا أن يتم تحرير المعنى من سلطة القيود العلمية المهووسة بالأحادية، وذلك من خلال سياقات القول الجديدة المرتبطة بالنص الحاضر، والتي ستزداد بعدا عن المرجع زمانيا ونصيا وستعزز هذه الحرية أكثر، مع توفر إمكانية الانفلات من الرقابة المؤسساتية؛ حيث سيتمهى التاريخي / المعرفي مع التخيلي /السردى.

وفي حال كان المقصود بالدراسة، هو التاريخي داخل الخطاب الروائي كما في حالتنا نحن، فإن مصطلح "التمثيل التاريخي" سيشمل الكشف عن تمظهرات التاريخ غير المؤرشف ولا المسيطر عليه؛ التاريخ الذي أسقطته المؤسسة، و غيبته عن مقرراتها التعليمية والإعلامية، لغايات تخدم خياراتها واستراتيجياتها الخاصة.

ولما كانت خيارات المؤسسات لا تتواءم في كثير من الأحيان مع إرادة الذات، كان التخيل الروائي هو أحد أكثر المجالات تحيزا للذات الكاتبة والمتلقية والمتعاطفة والمتظلمة والمهمشة وصاحبة القضية.

ففي رحاب المتخيل السردی يمكن للتاریخ أن يعلن عن نفسه دون خطوط ولا قيود ولا إكراهات ، و ستظهر سيطرة مطلقة للذات الكاتبة في قول التاریخ الذي تراه هي صحيحا وواجب التمرير، ستقوم بعمليات إزاحة وتصنيف بالغة الطموح، مشبعة بميولات هذه الذات وتجزأتها، وهذه أكبر المكاسب التي يمكن للذاكرة المقصية، وللتاریخ المغيب أن يظفرا بها.

### 3. مستويات التمثيل التاريخي في مملكة الزيون :

إن أول ما يلحظه القارئ أن الذات الكاتبة المثقفة قد وظفت كل حمولتها الفكرية الأكاديمية في هذه الرواية ، ومارست بكفاءة عالية حضورها المعرفي في محكيها، وهذا الذي وضعها على ضفاف التاریخ المستعاد موفورة الحجج دامغة البراهين، فقد حفلت فضاءات المناصات والحواشي بمراجع و مصادر وإحالات موثقة تشهد على صدقية المتن وتمحو الحدود بين التخيلي والحقيقي، حيث سُجِّر الكل؛ الحقيقة و التخيل معا، لإنجاح مهمة حضارية ورسالية لا تخرج عن غايات الكشف والفحص والرد والتعديل والتصحيح.

تأويليا يمكننا تعيين مستويين اثنين أمكن للمكون التاريخي التماثل من خلالهما، وعلى كل مستوى يمكننا المقابلة بين ضربين متعارضين من الحضور التاريخي، تفصيل ذلك؛ أن المعرفة التاريخية العاملة التي يمثلها البطل (لمرابط) وهو مؤرخ وأستاذ جامعي، تتم معارضتها بنسخة عجائبية للمعرفة التاريخية، شعبية المصدر، متوارثة و مسلم بها، من غير فحص و لا تدقيق، يحملها أهل "توات" وعموم أفرادها.

وعلى المستوى الثاني تقام ثنائية ضدية أخرى قوامها التضاد بين التاريخ المؤسسي المؤدلج، والتاريخ المسكوت عنه.

تشابك الخطابات إذن على مستوى كامل النسيج الروائي وتتجاوز من خلال محاورات الشخصيات وأفعالها وحالاتها . لنصل في النهاية إلى ما أرادت الذات الكاتبة أن توصلنا إليه، أو توصله إلينا من حقائق منافية للسائد و المعهود.

تبتدئ الرواية بموقف عجائبي يختلقه الراوي من أجل إقحامنا في لعبة التاريخ المؤلفة بين الحقيقة والخيال، والقصة هنا هي قصة البطل (لمرابط) الأستاذ الجامعي الذي غادر منطقة "توات" مسقط رأسه، ليعود إليها بعد ثلاثين عاما مستكشفا مستطلعا، باحثا عن حقيقة ما آلت إليه الأوضاع في قصره بعد مرور مشروع الثورة الزراعية عليه في سبعينيات القرن الماضي، ورغم أن مدخل الرواية كان عجائبا بالمعنى الحرفي للعجائبية، إلا أن هذا المسار التخيلي سرعان ما يتم تعديله والنزوع به نحو العالم الممكن، وذلك من خلال الخطاب التخيلي السير ذاتي.

### 4. 1 التمثيل التاريخي لثقافة التوات بين الوعي السائد والثقافة العاملة:

نغوص مع الراوي إذ يغوص في عالم المجهول الذي يعادله على مستوى المتخيل، مغارة عجيبة تقع في مدخل القصر التواتي ، تُمارَس عند مدخلها بعض الطقوس السائدة بين التواتيين، ولكن الدخول إليها أمر مستبعد

للغاية، لأنه لا يخلو من مخاطر تنذر بها مجموع الأحداث المفزعة التي علق بتاريخ المغارة، والتي ظلت ماثلة في المخيال العام للتوايين، وذلك ما جعل الجميع يقاوم فكرة الاقتراب منها، ما عدا الراوي (المرباط) فقد ساورته في يوم من الأيام فكرة اختراق تلك المغارة المحظورة، فاستجاب لتلك الفكرة من بعد تردد، وقد ساعدته على اقتحامها جسارة لم يتوفر للآخرين ما يضارعها، شحنة من الفضول العالم والعارم، حملته على خوض مغامرتة العجيبة؛ " ذات يوم من أيام الصيف الحارقة، خطر بباله في أوقات جنونه وعبثه، أن يذهب لذلك المكان الذي نعته له الطالب أيقش عساه يحقق غايته ويبلغ مناه" (ريكور و زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، صفحة 12). إنه فقط حينما يستوي الجنون والتعقل يمكن للإنسان أن يأتي بالبدائع في عالم الفكر أو الفن. لقد كان السارد في حاجة ماسة إلى لحظة جنون كي ينفذ مشروعه الذي هو مشروع حياة بالنسبة له، مغامرة ظلت مؤجلة إلى حين حلول حالة الجنون تلك حيث لا يحسب للأخطار أو الخسائر حساباً، فقط هناك هدف، و كان ثمة زمن محدد لبلوغه؛ "زمن القيلولة خرج الدرويش المرباط لحفرة الرباطة، سالكا ذلك الزقاق الذي كانت تعود فيه من حفرتها إلى القصر، وقد أوصاه الطالب أيقش بل وأكد عليه، أن يخرج منه وفي العودة، أن يعود بذلك الزقاق المخالف الذي كانت تخرج فيه من القصر إلى حفرتها، كما ذكر له، من أنه عند اقترابه للمكان عليه أن لا يتفاجأ بحدوث زوبعة رملية دائرية" (ريكور و زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، الصفحات 12-13).

يُطرح السارد إذن المعلومات الجاهزة عن المكان وعن القصر الذي يحاول اختراقه جانباً، ويحاول التعرف عليه من الداخل، مع إدراكه التام لخطورة هذا الاختراق وصعوبته؛ فدونه أهوال عظام مرموز لها في الرواية بالزوبعة الرملية المتوقعة مع كتاب مسطور من المرويات المموهة، والتي تحمل تمثيلات عنوانها الزيف والكذب وربما الجهل "عند اقترابه من المكان لم يتفاجأ على أية حال بزوبعة رملية دائرية موجوجة كسرت صمت المكان وزادته رهبة إلى رهبته الأصلية، وقد ازداد يقينه بالطالب أيقش لحصول ما ذكر آنفاً من أنه قرب وصوله للحفرة سوف يلاحظ حدوث تلك الزوبعة الرملية الدائرية والتي كثيراً ما سمع عنها في أساطير عمته نفوسة وأسطورة مخيال القصر الجمعي" (ريكور و زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، صفحة 13). الذات التواتية إذن تفكر و تسأل و تبحث عن الحقيقة، مثلها مثل بقية الذوات التي تحترم عقلها وتستخدمه كما ينبغي، كل ما في الأمر أنها انطلقت من حيث ما يجب الانطلاق، لا بد من حسم البدايات، قبل أن تمضي في طريقها نحو المستقبل، لقد أدرك المرباط وظيفته كمتقف له وزنه العلمي والمعرفي، فراح يبحث بإملاء من ذلك الوعي، في تاريخ المجتمع التواتي، بحيث حول سيرة الذات إلى موضوع عام، ونص مواز، يقرأ تجربة من تجارب الحياة الجمعية، فيضيء الغفل منها ويبين الأبعاد الخفية في معالمها.

لقد اشتغل المرباط/ السارد على مرويات أهل القصر، وعلى رأسهم العممة (نفوسة) التي تمثل الجانب الساكن والمتشدد من الثقافة التواتية، وحاول تفكيكها بالتركيز على موضوع تمثيلات الذات، وفحص الصورة التي تمتلكها الذات التواتية عن عالمها؛ عالم القصر الصحراوي، وعلى ما يبدو فهو عالم عجائبي مجهول لا تحيط به المعرفة، ولا يمكن للمنطق أن يسيطر عليه، خلص الراوي من مقارنته إلى أن أهل القصر أنفسهم يجهلون ذواتهم وتاريخهم. فكل ما يعرفونه بهذا الخصوص لا يجاوز مرتبة الظنون التي تحولت مع الزمن إلى عقائد ثابتة، وحقائق جامدة، وتمثيلات واستيهامات حققت معقوليتها وثباتها لديهم بقوة التواتر والسريان من جيل إلى آخر، لكنه هو، لم يستطع أن يراها على غير ما هي عليه؛

أوهام هي من وحي الجن والعمارة التي تسكن تلك المغارة "كان سكان القصر في سالف عهدهم وحاضرهم أيضا، يروون عن المكان روايات مرعبة ما حدا بالكثير منهم، إن لم أقل الكل أن يتفادوا المرور بالمكان في تلك الأوقات المحظورة" (ريكور و زيناتي، الذاكرة ، التاريخ ، النسيان، 2009، صفحة 11).

إذن الخوف من اكتشاف الذات، أو العزوف عن الاكتشاف، هو ما يجمع أهل القصر. وحده (لمرابط) يملك تلك الجرأة، وهي جرأة علمة ومفكرة، تحاول تعقل الكون الصحراوي، وفهم الذوات المنتسبة إليه، وإدراك وضعيتها في العالم من حولها. يستجمع (لمرابط) قواه النفسية والعقلية والمعرفية، ويأشر تجربة التعرف على الذات " غير أن رغبة ذلك الدرويش الزبواني الحالم باكتشاف تلك التحولات الاجتماعية العميقة التي مرت بما مملكتهم خلال ثلاثين سنة، كانت تدفعه لتكسير طابور رعشة المكان، دون أن يراعي أو يحسب للمجازفة حسابا" (ريكور و زيناتي، الذاكرة ، التاريخ ، النسيان، 2009، الصفحات 11-12).

ثلاثون عاما إذا ما عُدت بتقويم المتخيل الروائي خارج التاريخ، ثلاثون عاما من التحول، من الغياب الملتبس بالحضور. في الثلاثين عاما التي قضتها الذات الساردة خارج التاريخ، وبعيدا عن القصر نشأت علاقة حميمة بينها وبين ماضيها، وكانت الذكرى هي قوام تلك العلاقة وجسرها، ففي حالات الغياب تتولى الذاكرة بمؤثثاتها ومدخراتها، مهمة الوساطة بين الذات وأصل وجودها بينها وبين مدار كينونتها. إن الشرح الذي يخلفه الغياب يمنح المكان الأول معنى القداسة، ويسوي العودة إليه بالحلم، و بالمقابل تأخذ الأمكنة الأخرى معنى المنفى، إن العهد الذي قضاه السارد خارج الحلم داخل المنفى قد أكسبه العزيمة الكافية لحوض مغامرة اكتشاف سر المكان / القصر الأول، ومن ثم سيتأتى له تسوية القدسية التي تحفه داخل وعيه الخاص، وداخل وعي الآخرين أيضا ممن يحسون له وقارا قد يكون مفسرا وقد لا يكون؛ ما سر تلك الرفعة التي يملكها؟ لماذا لم يستطع (لمرابط) الفكك منه ومن عنفوانه؟، لماذا ينجذب إليه طائعا راغبا؟ ، ليس من السهل العثور على إجابات جاهزة، لا بد من البحث والتحري ومباشرة سبيل التعرية والكشف، ومن ثم ممارسة فعل التصحيح. وهذا الذي كان منه، بيد أنه كان من الضروري أن تتوحد معه نحن القراء، و نتلبس بروحه الباحثة عن الحقيقة، وهو يقف على عتبة المغارة الغز. لم يكن على السارد وهو يقف هذه الموقف المهيب إلا أن يشهد عزائمه، ويدلف جوف التاريخ فالذي سمعه وعرفه لم يرو الظمأ، ولم يقنع العقل، وإن الذي يقنعه ويشفي غليله، هو ما يراه وليس ما يروى له ويمثّل. وبهذه الخطوة المنهجية والصابئة، يكون السارد قد سلك الطريق الوحيد الكفيل بالوصول إلى حقيقة الذات، فالإحاطة بماضيها هو شرط ضروري لفهم الذات وتعقل حاضرها.

بدأ السارد إذن من حيثما كان يجب أن يبدأ؛ بدأ من الحقيقة لا من الخرافة. واستغنى عن الناقلين والرواة والوسطاء وقصد المصدر .

#### 4. 2. مصادر كتابة التاريخ :

إن استهلال الرواية ذلك الاستهلال العجائبي المقترن بلغز المغارة، لم يمنعها من أن تنحرف إلى المعقولة، لقد كانت الرؤيا هنا، أنه لا بد من اقتحام العجائبي والغرائبي وتطبيعهم ومنطقته وصكه بصك العقل والمنطق، حتى يغدو

عملة قابلة للصرف في عالم الثقافة الكونية، فالصحراء فضاء غير جنيس للفضاء المخالف، إنْها ولأنْها مجهولة ومغلّقة دونْها الأبواب. في حكم العالم الغرائبي، والمطلوب هو نزع الغرائبية عنها، وتحويلها إلى عالم ممكن مفتوح.

يبدأ فعل التطبيع من الاقتحام المصحوب بالتفكير؛ "وما إنْ بلغ نهاية ما وقر في قلبه، وحدث به نفسه، حتى سمع صوتا نسويا لطيفا خفيفا يناديه من الداخل، أن ادخل، فوجل، ولم يسم، بل تعمد فعل ذلك، لأن الطالب أيقش قد ذكره كذلك بعدم التسمية، لأن ذلك لا محالة سوف يطرد الجن، فدخل غير مسم " (ريكور و زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، صفحة 14). لم يكن ذلك الصوت سوى صوت الصحراء الحكيم، صوت الفكر والقراءة والعلم والمعرفة والتصوف والفقّه صوت الجمال حينما يتلّج لباس الحضارة والمدنية والعمران والتاريخ الزاهر، إنْها ليست دروشة وأعاجيب تناقلتها المرويات، والمتون الشفهية، والأنساق الثقافية النائمة على حكايا الجن والماورائيات. في قلب الصحراء قرأ وفهم، في الحفرة العجيبة "سنحت له الفرصة لأن يرى قراءة، ماشاء الله له أن يرى من أوصاف الواصفين للجمال، وفنون أذواقه، بمخطوطات خزائن مملكتهم الزيونية بقصور تمنطيط، وتليلان، وملوكة، وزاوية كنتنة، وزاوية الشيخ المغيلي، وانزجير وأقبلي، وأولاد سعيد والمطارفة" (ريكور و زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، صفحة 15) وللإحاطة، يحيلنا المتن إلى الهامش، وفي الهامش نعثر على البدائع التي لم تخطر على بال أحد من أهل توات أو غيرهم؛ يُفسّر لنا المجهول، ويُترجم الملتبس، فيتضح المقال. وأما هذه الأسماء الغريبة الواردة هناك في أسفل الصفحة على أنّها هوامش وإحالات تابعة للمتن ومتممة له فتأخذ دلالتها الصحيحة من التاريخ ومن الجغرافيا التواتيين؛ فتمنطيط هي مدينة قديمة شهدت حركة تجارية نشيطة، أما تليلان وملوكة فهما قصران، والقصر في لغة التوات يعدل معنى المدينة، كانتا منارتين للعلم والعلماء، وكذلك الحال بالنسبة لانزجير، وأقبلي، وأولاد سعيد والمطارفة. ويواصل السارد رحلته العلمية في جوف التاريخ التواتي، ليصل إلى محطات موعلة في التمدن والحضارة "بل قد صار به الحال حتى بلاد السودان الغربي، فبلغ حواضرها العلمية كتمبكتو وغاو وكانو وأقادر، وخالط العائلات العلمية هناك، كآل كنتنة وآلسوق وآلفلان، واطلع على مخطوطات محالب الجمال وناق الحسن التي تحلب لب الرجال من فتنة النساء بمخطوطات خزائن خيامهم وحلاتهم. وما أكثرها. وشاهد هناك المرأة التارقية الجميلة بكل ما أوتيت من سحر جذاب وفتان " (ريكور و زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، الصفحات 15-16). كثافة تاريخية لافتة، وقوة معرفية تضرب في عمق التاريخ بيد من نور، يحيلنا هذا السجل المطرز بأسماء الأعلام من شخصيات وأمكنة عالمية الوزن، على تاريخ أعيد إنتاجه للتو، والماضي الذي يحضر هنا هو ماض موثق في السجلات والوثائق، ومستدلّ عليه بشواهد حقيقية تمتلك مصداقية الإحالة. وربما كان من الوجاهة أن يظن السارد في ذكر أعلام المنطقة وحواضرها، فلما شعر أن المتن لا يفي بالغرض، وجه المتلقي إلى الهامش حتى يتوسع في الموضوع، فيغدو الهامش بعد ذلك هو الأغنى، وهو الأصل و المرجع، فالحاضر/ المتن يحيل على الهامش/ المصادر، والذي يعنيه ذلك. على مستوى التأويل. هو أن الصحراء المهمشة هي في واقع الحال مصدر الحقيقة وموردها، لذلك فهي تستحق أن تجل وتعظم وتعلق قلادة في أعناق أبنائها: " هذا عهدنا وميثاقنا إليكم أيها الجيل الجديد ...

إن أرض الزيون هي قلادة ثقيلة في أعناقكم، لها من الحمولة التاريخية والزخم الثقافي . المادي والشفوي . ما يجعلكم تفتخرون بطينها وقصباتها ورمليها ونخيلها وفقايرها، فإن آباءكم وأجدادكم قد عاشوا فيها بحسب ما أتيح لهم من الزمان، ورضي كل منهم بحسب ما يتاح لكم، وإياكم والانتفات كثيرا للوراء، فإنه قد فات ومات .

وانظروا إلى حاضرهم بما تستشرفون به مستقبلهم، فإن تيسر لكم الأخذ بأسباب الحضارة، فخذوا منها بأكثر ما يفيدكم ولا يريبكم على أن لا تنسلخوا عن تراثكم، وتنبهوا بكل وافد براق، وعيشوا فيها إخوانا متحابين، فتخندقوا فإن مصيركم واحد، ولا يضيركم أن يبقى كل واحد منكم على أصله، إنما هي نواميس الكون، كالطول والقصر، والنحافة و البدانة والصحة والمرض، وقس على ذلك في الأمور كلها" (ريكور و زيناتي، الذاكرة , التاريخ , النسيان، 2009، الصفحات 27-28).

تلك هي الوصية التي يتلوها السارد على أبناء الصحراء بعد أن أدى مهمته بنجاح، وكشف الحقيقة التي ظلت مغفلة ومهملة، فبعد أن ثبت بأن للصحراء أصل نوراني، لم يعد بالإمكان أخذ التمثيلات السائدة على محمل الصدق.

#### 4. 3 تأويل التاريخ :

ترتبط الذات الكاتبة هدفها في الوصول إلى الحقيقة بخياراتها السردية؛ حيث يكتسب موضوع "التاريخ" دلالاته بوصفه حقلا أثرا اختاره (لرابط / السارد) ليتخصص فيه طالبا وأستاذا. فيتوسله مطية لتحقيق مشروعه المستقضي للحقيقة، إنقاذا لذاته التائهة في سراديب المروييات الملقق أغلبها، ويتسنى له بمهذ المناسبة التواصل مع الضمير الجمعي المتجه لاشعوريا نحو لحظة الانتصار والتفوق والسيادة، فيؤسس لاستراتيجية قوامها التمرکز داخل الرواية من خلال تفرده بدور البطولة، وتحويل تجربته الخاصة إلى تجربة لغوية ذات طبيعة تخيلية. تم كل ذلك تحقيقا لغاية قصوى، هي التمكن من بلورة خطاب مهيم، من شأنه السماح بتوجيه السرد الوجهة التي ترتضيها رؤية الروائي.

#### 5. سلطة المعرفة وأثرها في صياغة خطاب الذاكرة :

من يعرف التاريخ يملك حق الإدانه، وحق النقد، لأنه يتموضع في قلب الحقيقة التي إن شاء مرّرها صحيحة، وإن شاء عدّها لصالحه، فالتخلص من الماضي صعب إذا كنت بمواجهة مع العارف بالتاريخ، وبوقائعه المعلمية كواقعة (قنبلة رقان) التي يستعيد المتخيل ويفككها في ضوء الخطاب مابعد الكولونيالي.

لئن كانت معرفة تاريخ الذات غير خالية من دلالات الشعور بالقوة والحصانة، فإنها في بعدها الثاني، تتضمن تهديدا للخصم/ الآخر، وحينما تختار الأنا حدثا تاريخيا ما ليكون موضوعا للتفكير، فإن ذلك يعني أن لذلك الحدث ثقل كبير على مستوى وعيها، مما يستلزم ضرورة منحه شكلا لغويا، أي إخراجه والتعبير عنه وفق النمط الذي يخلص هذه الذات المهجوسة به من حمولتها الضاغطة، والتي تمنعها عادة من العيش براحة وتحرر . يمنح (لرابط) قنبلة "رقان" امتياز الاستدعاء، نظرا لمحورية ذلك الحدث في ذاكرته الفردية، وهو يطمح لأن يبوءه مركز الصدارة في الذاكرة الجماعية ثم الجمعية، وإذا كان (ريكور) يعتبر الأشياء التي يتم تذكرها، محصلة لعملية فرز يتم بموجبها منح أشياء بعينها درجة

الامتياز في قائمة المحتويات الذاكراتية . "إنها تتعلق بالامتياز المعطى عفويا للأحداث من بين كل الأشياء التي نتذكرها". (ريكور، الغانمي، و فلاح، الزمان و السرد / الحبكة و السرد التاريخي، 2006، صفحة 67)، فإن (لمرابط) يمنح ذلك الحق لقبلة "رقان" المفجرة في وجه الإنسانية، والناسفة لأسطورة الآخر النبيل والأعلى مكانة، وكما اجتهد الآخر في انتقاء الأحداث التي تقيم معنى ساميا لوجوده، فإن الذات الساردة قد عملت على جبهة مقابلة، هي جبهة الرد والمقاومة، فبرعت في انتقاء الردود الفاضحة والمدينة.

## 1.5 جراح الذاكرة والمداوة بالإدانة

يعني إدخال حدث ما إلى المقررات الدراسية الرسمية السعي المؤسساتي الحثيث إلى تثبيته وحفظه من النسيان من جهة، ومن جهة أخرى هو يكشف عن تدخل الإيديولوجيا في إصدار القرار، ذلك أن الخطاب التعليمي هو خطاب إيديولوجي في المقام الأول؛ "يعتبر الخطاب البيداغوجي أكثر الخطابات فكاراً، إنه أكثر فكاراً من الخطاب السياسي ذاته" (وليفي و اوكان، 2002، صفحة 41). وإن حدثاً جلالاً كـ "قنبلة رقان" ليس من العدل ولا المناسب إغفاله، لذلك عمد السارد إلى توثيقه سردياً وإدخاله إلى الخطاب البيداغوجي بقصد إقحامه في عمق الوعي الجمعي. "وعندي في المساء حصة مع طلبة الثالثة، حول آثار القنبلة النووية على رقان ومملكة الزيون" (ريكور و زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، صفحة 210).

المثير أن (لمرابط) لم يشر إلى حادثة القنبلة كحدث ماضٍ، إنما أوحى إليه بوصفه حدثاً شنيعاً ممتداً يظل شاهداً على فظاعة الآخر وإجراميته، إن الأمر يتعلق بـ "آثار" غير قابلة للمحو، إن على مستوى الذاكرة والوعي، أو على مستوى الواقع والفعل، وما دامت الأصوات الحقوقية أو البيئية أو الإنسانية لم تُدُن هذا الجرم بما يكفي، فقد عمد السارد إلى توثيقه سردياً حتى لا يضيع الحق الإنساني في أدغال التاريخ، خصوصاً وأن الطرف الميدان هو من الأطراف البارعة في طمس الحقائق الاستعمارية وتزويرها وتقديمها في صورة أحداث "حربية" عابرة، ويجوز في الحرب ما لا يجوز في غيرها.

تسمح الإشارة المقتضبة إلى "قنبلة رقان" بفعل الرد والمقاومة الثقافية، ودون أن يضيع السارد خيط السرد الذاتي، يفتح جرح ذاكرة الوطن، ويستحضر ذخائرها الأكثر إيلاماً، ليثبت فاعلية الذاكرة الصافية وجدواها في صياغة موقف الأنا الوجودي، إننا قوم لا ننسى، لأننا نقاوم النسيان، ولأننا نحسن الانتقاء والتمييز بين ما لا يضر نسيانه، وبين ما "لا يجب" نسيانه لأنه غير قابل للتقادم. هكذا قال لسان حال (لمرابط) حينما قرر استدعاء الأحداث عميقة التأثير في كيانه، بالغة الانحراط في كينونته التاريخية.

إن أرشفة الحدث المهول تمت . على مستوى النص . من خلال ربطه بقرينة لغوية دقيقة الإيحاء، هي "الأثر". وفكرة الأثر هنا هي فكرة محورية في مقاربة (بول ريكور) التي تستند هذه الدراسة إلى كثير من مقولاتها ذات الصلة بموضوع الذاكرة (ريكور و زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، صفحة 67). يأخذ مكون الأثر في التوظيف الرمزي له، معنى الدليل والشاهد الذي يعتمد عليه في بناء الماضي واستعادته والتعرف عليه، كما يكتسب أهمية الحيلولة دون محو هذا الماضي والتعمية عليه. ومع أن الآثار أنواع منها المادي ومنها النفسي، فإن النوع الذي كان

(لمرابط) معنا به، هو النوع النفسي؛ إذ لم يكن ثمة داع للحدوث عن امتداد الآثار من الناحية المادية الصحية والبيئية وغير ذلك، على أساس أن هذا الجانب يساق فقط للاستهلاك الإعلامي، لكنه لا يدان أو يجرم على مستوى الفعل، ببساطة لأن المتهمين هم أنفسهم من ينتجون هذا الخطاب المتأق، بينما الأثر النفسي الذي تتقاسم حمله الذات مع الجماعة، هو أثر ثقيل العبء، شديد الوطأة، عميق الشرخ لأنه يتعلق بجرمة النوع الإنساني، بكرامة الإنسان (التابع/ المستعمر)، بجرمته، بأرضه، وبكل ما له معنى بالنسبة إليه، لهذا يستلزم الأمر كتابة تاريخ آخر مضاد، على أن يتم ذلك بقلم التابع وبصوته، وتحت إمرة ذاكرته هو، لقد ارتأى هذا التابع ممثلاً بشخصية البطل (لمرابط) أن يكتب التاريخ على صحيفة الذاكرة الديدانكتيكية، بقصد التمكن من تمريره للوعي الجمعي وتصديره للضمير العام الناشئ، تمهيداً لصياغة مشروع وعي مستدام بالذات وتاريخها، يستعصي على التدجين والاختراق على مدى الأجيال، مع هذه "الآثار" ستكون وحشية الآخر في واجهة الوعي الجمعي، وسيتبين بأن تاريخ هذا الآخر لم يكن أيضاً ولا نظيفاً ولا عادلاً، إنه تاريخ استعماري بالغ السواد يستحق الإدانة، ومادامت آثار الجرم موجودة، فلا سبيل إلى ادعاء الطهر والفضيلة. أما خير وسيلة لاستعادة حق الذات فهي حفظ هذا الحدث وإدراجه في الأرشيف التعليمي، أي التمكين له في قلب الخطاب الذي له اليد الطولى في صناعة ضمير الأمة، ورعاية ذاكرتها الجمعية .

وفي البعد الأكثر فلسفة لهذا الموقف السردى، تتم إعادة بناء التاريخ من خلال تمثيله نصياً وأديباً، ذلك أن فعل التخيل الروائي هو أكثر قدرة على فهم التاريخ والتعرف عليه كما لا يستطيع الفعل التوثيقي نفسه فعله (كونديرا و عروديكي، 2001، صفحة 20).

هكذا يتولى المتخيل رعاية المشروع المضاد للمشروع الاستعماري المحكوم بأحادية أمبريالية، لا ترى الكون والتاريخ والوجود إلا من منظور استعلائي مقيت، وفي معرض عملية البناء هذه، لا يتم إغفال الطابع الوجداني الحميمي الذي يوفره عنصر الذاكرة في دلالاتها الشعرية، ومع اجتماع الجمالي والتاريخي وفي ظل تواطؤ الذاتي مع الجمعي، يتم تحويل التاريخ إلى متخيل تاريخي غير قابل للتشكيك، ولا المماحكة، ومع كونه تخيلاً، فهو لا يفسد للحقيقة قضية، بل هو يجرسها ويغرسها غرساً.

## 2.5 أزمة الذاكرة واستراتيجية النسيان

فيما يتساق مع وجهة نظر (بول ريكور) القائلة بأن: "ليس الحدث التاريخي ما يحدث، ولكن ما يمكن أن يُروى" (ريكور، الغانمي، و فلاح، الزمان و السرد / الحبكة و السرد التاريخي، 2006، صفحة 267)، يستغل الروائي غياب تمثيل وجهه وعادل لتاريخ التوات وثقافتها مع خلفيتها الفضائية الكبرى (الصحراء)، ويشغل في تلك المنطقة المفتوحة فيبرع ويتفوق ويتفرد، إن في تقنياته وحرفيته التخيلية، أو في فلسفته ورؤيته الروائية. ومن أمارات تفرد، اشتغاله على التناقضات والمفارقات التي سرعان ما يجد سبيلاً للتأليف بينها. ومن التناقضات الطاغية حضورها في الرواية ثنائية التذكر و النسيان التي تجد لها توظيفات خصبة، خصوصاً حينما يضعهما في سياقهما الطبيعي الذي هو التاريخ .

يسيطر الراوي على الحكّي فيجعل من تيمّي "التاريخ" و "الذاكرة" العنصرين الأكثر أهمية، مما يبعد حضورها عن الحياد، ويوجه فهمنا للرواية إلى مسار غير بعيد عن سياق إيديولوجية الروائي المنتصرة (بحكم انتمائها) للذات الصحراوية التواتية، ولذاكرتها الجماعية إلى أبعد حد، وإلا كيف نفهم كلام (لمرابط) الذي مؤداه: "كما أن ذاكرتنا الصافية نحن أهل الزيوان، قد ساعدتني كثيرا في إثبات تفوقتي وبجدارة، لسهولة الحفظ عندنا، ولا ينفك الحفظ عند دارس التاريخ وطالبه، هو أكثر ما يخشاه ويتوجسه الطلبة عندنا بمعهد التاريخ، الأمر الذي جعلني متفوقا ومغدقا علي من النقاط العالية، ما خلق مني طالبا مدللا من الطالبات معنا، فقد كن كثيرات ...". (ريكور و زيناتي، الذاكرة ، التاريخ ، النسيان، 2009، صفحة 189). توصلنا لعبة السرد كما هو واضح إلى إقامة تصور للشخصية التواتية يقوم على التفرد في قدراتها ومهاراتها، وفي ميولها وقناعاتها. علما أن ملاحظة هذا الاختلاف من طرف الذات التواتية الزيوانية لا تخلف لديها أي إحساس بالدونية والنقص؛ ولا عجب! فما يبدو عصيًا على الآخرين، يكون ميسورا على الزيوانيين، ولجرد كون (لمرابط) زيوانيا تواتيا، فقد شكل له ذلك ميزة ضمنت له المعية وحضورا ليسا لغيره. فمعرفة التاريخ، والقدرة على استيعابه، وفهم حيثياته ليس بالأمر الهين على الإطلاق.

وإن إحدى أهم أدوات معرفة التاريخ الذاكرة ف "نحن لا نملك أفضل من الذاكرة من أجل الدلالة على أن شيئا معيناً قد حصل، قد حدث، قد مر، قبل أن نعلن أننا نتذكره" (ريكور و زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، صفحة 56)، وفي حالة الحفظ الذي يقدر عليه الزيوانيون، تستحيل الذاكرة إلى أداة فعالة في مسعى إثبات الذات، ومن خلال التكرار الذي يتضمنه فعل الحفظ يرتسم أمامنا ذلك الإلحاح الذي يدخل الذات الزيوانية في صراع مع الذوات الأخرى المنكرة لحضورها التاريخي، وربما الساخرة منها، لما يجلبه الحفظ في أدبيات المعرفة "الحداثية" المعاصرة، من اتهامات القصور، فهو يكفي الحافظ. حسب هذه الأدبيات. عناء التفكير العميق، ويمكّنه من نبيل المعرفة جاهزة، ومع تلك السهولة وذلك اليسر، لا يكون ثمة مجال للدعاء بالتفوق والمهارة في استخدام العقل، وحينئذ يسهل القول: بأن الحفظ بما هو تكرار لكلام الغير، من غير أن يقابله رصيد معرفي يستحق الثناء هو فعل غير تفكيري ولا منتج. والذي يرفع (لمرابط) من أجل دحضه، هو الإعلاء من شأن نشاط الحفظ بالقدر الذي يملكه المحفوظ من مكانة تجعل من حفظه فعلا استراتيجيا، يستهدف تخليده والتأمين عليه من مخاطر الخو والنسيان المحكومة ببرامج وأجندات بالغة الدقة والتأثير والبحث أحيانا. لكن في حالة كون المحفوظ تاريخا، فإن السارد يقدمه كوعاء للإشكالية الحضارية للمجتمع الخاص التواتي الزيواني والمجتمع العام الجزائري العربي، وباقي المجتمعات (التابعة) ذات الانتماءات المشتركة، وأولى هذه الأزمت أزمة الذاكرة، نظرا للارتباط الدلالي القوي بين الحفظ و الذاكرة .

### 3.5 . مركز الذاكرة واستعادة الذات

لقد أدرك الأساتذة العارفون بسحر الأمكنة والأزمنة المكتنزة بعقب التاريخ قيمة الذاكرة الثقافية والحضارية التي يمثلها (لمرابط)، فأكبروه وعظّموه ليس لشخصه فقط، بل لنسبه الضارب في عمق التاريخ المدون في مرويّات أهل الاختصاص. فمنطقة "الزيوان" ليست غريبة عن المتون، وحضورها في سجل المعرفة التاريخية والحضارية، ليس حضورا باهتا ومعتما، بل هو حضور كاسح وواثق من نفسه، والحمولة التاريخية لثقافة الراوي، واندغامها في الذاكرة الجماعية مقرونة بتجربة الراهن، تبوّؤها مكانة الصدارة، وتمكّنها من إعادة الاعتبار بعيدا عن انطباعات الآخرين واعتقاداتهم، كما

تضمن لها الترميم داخل المخيال التاريخي بما يمنحها سلطة الإفصاح والبوح، ذلك أن "الإنسان الذي ينقصه التاريخ، يفقد صفته كإنسان، سيتراجع نحو صفة طبيعية مجردة (الحيوانية)، وفوق الحدين (التاريخية بوصفها ممارسة وخلق واقعيين، والتاريخ بوصفه معرفة عقلية) يوجد إذن الحد الثالث (الوعي التاريخي) المكافئ في أهميته للآخرين، يجمعهما في العمل وفي الثقافة" (لوفيفر و الجيوشي، 2002، صفحة 46).

لا يبتعد الرواي بأطروحته عن هذا الوعي التاريخي، ويضعه على حافة مفهوم الذاكرة التي تتجلى. كما أسلفنا، كقيمة مركزية تولدت منها جملة من التيمات الفرعية، منها علاقتها بالهوية والمعرفة وبالآخر وفي سياق هذه التيمات، يسوق الرواي حقيقة أن ليس ثمة من يملك سلطة على الذاكرة غير المعنيين بما هم من يطمسونها وهم من يسيّدونها إن أرادوا، ولقد أراد الرواي أن يسيّد ذاكرته فكان له الذي أراده. أتاح لجوانب القوة في ثقافة التوات أن تبرز، وشرح أحداثه الخاصة لتكون تاريخاً فردياً يستدعي التاريخ العام ويوثقه. صحيح أن هذه الحياة المروية هي لا حدث، ولا تاريخ، بالنسبة للآخر/ الآخرين. لكنها تستحق أن تكون تاريخاً محكياً للذي عاشها واكتوى بحرائقها، وتنعم بحلاوتها؛ حياة بسيطة واقعية حولها (لمرابط) إلى موضوع لتخييل سردي تاريخي مرتبط بأفاق كاتبه وقناعته. تساءل (هنري لوفيفر) يوماً: "من الذي يختار الحدث الموصوف بالحدث التاريخي؟ وفقاً لأي معيار؟..." (لوفيفر و الجيوشي، 2002، صفحة 9)، بعيداً عن الروح الفلسفية التي طرح بها هذا السؤال، ودون التقيد بالسياق الذي طرح فيه أيضاً، يمكن إعادة توجيهه بناء على سياقنا نحن، فنقول: هل يمكن لأي كان أن يعتبر الحدث الذي يخصه حدثاً تاريخياً؟ وبالتالي يمكن تحويله إلى حدث تاريخي عام؟. يجيب (لوفيفر) بما يفيد أن الفيصل هو الغاية؛ "الغاية وحدها تسمح بتصور الصفة التاريخية، وبغيرها لا يوجد تاريخ بل فوضى" (لوفيفر و الجيوشي، 2002، صفحة 10). والغاية هنا قصوى بالنسبة للرواي؛ إنها كتابة الصحراء واستعادة الذات الصحراوية التي طال أمد تهميشها، وقد جاء الوقت الذي يجب أن تعود فيه مرة أخرى للتاريخ الذي أخرجت منه قصراً وعنصرية. فقبل أن تكون الصحراء هامشاً في التمثيل، كانت مركزاً في الحقيقة التاريخية. لكن النسيان المؤدج الذي تواطأ مع النسيان الاحتياطي (ريكور و زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، صفحة 608) هو الذي يقف وراء عملية الإزاحة.

يتناسل التاريخ مخلفاً وراءه آثاراً وحقائق كثيرة ما تغلفها إيديولوجيا النسيان؛ ذلك أن النسيان إيديولوجيا، فما هو منسي منسي بانتقائية وقصدية مريبة لا عذر لها، وفي حال تواطأت الذات الضحية والمستهدفة مع الجهة الصانعة للنسيان والمستفيدة منه، كان المنتصر هو الخرافة والتمثيل المنافي للحقيقة وذلك الذي كان مع مجتمعات التوات وحضارته، وظل الأمر على حاله ما شاء الله له أن يظل، إلى أن قبض الله لتلك الثقافة هذا الروائي الذي جاءنا. سردياً. في هيئة (لمرابط)، فكشف وفكك وصحح، وخلّص المتون من الظنون والأوهام. ومن هنا أتاح للذاكرة أن تمارس سلطتها التي لا تقهر، لأنها سلطة مستتبته من عمق الوجود الإنساني التاريخي المشارك في صناعة الثقافة وإنتاج المعرفة. إن تجربة المعرفة هي تجربة تاريخية بالضرورة، لأنها تعني مساهمة الفرد داخل المجتمع في بناء حضاري يتحقق عبر ممارسات متعددة الوجوه، ونتيجة توارث هذه الممارسات تتشكل تجربة جمعية، تحمل بصمة المجتمع الذي أنتجها، وتمنحها بالمقابل مكانة ضمن المجتمع الإنساني. وطالما أن الزيونيين شغلوا موقعا في التاريخ تظهره الوثائق والمتون، فمعنى ذلك أنهم يملكون سبلا

لصيانة الذات من التلاشي والغياب، فوجود الإرث الثقافي، يضمن استمرارية الذات بالتأكيد، ويمنحها مناعة فائقة ضد النسيان. وبالتالي يجرها من ربة إيديولوجيا الإقصاء فتبطل. تبعا لذلك. شرعية الصور التمثيلية الشائعة عنها.

الواضح أن الأمور بالنسبة لـ (لمرابط) جرت وفق هذا المسار، لذلك كان الاعتقاد عنده أن على الذات التواتية الزيونية أن تتعامل مع الواقع على أسس تختارها هي، ولا تُختار لها، وطبعا لن يخرج الاختيار في هذه الحالة عن المرجعية التاريخية لهذه الذات. ففي وضعها الراهن تتبدى كصناعة تاريخية يتم معالجتها آنيا بما تستوجبه شروط الحاضر ورهاناته، وأهم هذه الشروط على الإطلاق، ضرورة حسم موضوع الهوية، وتعيين سمات الأنا في مقابل تعيين مقومات الآخر الذي يتخذ بالتأكيد صورة أخرى سمتها المفارقة والاختلاف، تتبدى هذه الصناعة بتعلم التاريخ والتعرف عليه، و"حفظه" تعظيما له وتفخيما للأنا من ورائه، ثم مقاومة إيديولوجيا النسيان والمحو، ذلك أن ما يُرثح للحفظ عادة في أدبيات التربية والتعليم العالمية، هي النصوص المقدسة (القرآن مثلا عند المسلمين)، والأحاديث النبوية الشريفة، مع عيون الشعر والتف الأدبية الفريدة، وينضاف لجميع ذلك نوع من المعارف، التاريخ من بينها، يسري ذلك في الثقافة التعليمية العربية كما في الثقافات الأخرى يقول (ريكور) في هذا السياق: "إننا نتعلم التاريخ أولا عن طريق استظهار التواريخ والوقائع والاصطلاحات والأحداث البارزة والشخصيات المهمة والأعياد التي يحتفل بها. وبشكل جوهري التاريخ قصة تعلم، وتشكل الأمة إطار مرجعيتها" (ريكور و زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، صفحة 577). إذن بدءا من الحفظ والاستظهار لأهم الأحداث التي تعتبرها العناية المؤسسية في المجتمعات مهمة، وحقيقة بالدخول في صحيفة التاريخ الرسمي والمعتمد والمحتفى به، وصولا إلى مرحلة الاندغام في الوعي الفردي والجماعي تفعل المعرفة التاريخية فعلها في التأسيس لوجدان الأمة وصياغة ضميرها، والأمة التي ينتمي إليها (لمرابط) هي طبعا أوسع مدى من الجماعة الزيونية، إنها المجتمع الجزائري الذي له انتماءاته الأخرى غير المجهولة والتي تشكل مجتمعة هويته.

#### 5 . 4 . الذاكرة الصافية وتحرير الذات :

ينقل السارد فضاء السرد من الفضاء الخاص إلى الفضاء العام، وبكل مخاتلة يجعل لعبة "الحفظ" مثار تأويل مزدوج؛ فهو من جهة يعبر عن تمسك الأنا بذكرياتها صونا لها من الاندثار والنسيان، وهو من جهة أخرى يشير إلى الوجود الكامن للتاريخ في أذهان البعض من النحن "إننا نسي أقل ما نعتقد أو نخشى" (ريكور و زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، صفحة 639)، تعبر هذه المقولة عن التاريخ "الكامن" الموجود على مستوى الذاكرة الفردية أو الجماعية والذي لا يصحبه وعي بذلك الوجود، وهو يحتاج إلى مثير ينقله إلى دائرة الوعي (ريكور و زيناتي، الذاكرة، التاريخ، النسيان، 2009، صفحة 638)، إن التاريخ موجود بالفعل في ذهن (لمرابط) ومن لف لفه ممن يملكون ذاكرة سوية، وهوية ذات حدود محسومة وواضحة، لكنها موجودة بالقوة فقط في أذهان صنف آخر ينتمون إلى دائرة "النحن"، إن فئة الأقرين الخارجين عن دائرة "النحن" تعاني تشويشا على مستوى مفهوم الهوية، وعطبا على مستوى عمل الذاكرة، هذا النوع مشار إليه في الرواية بالطلبة زملاء الذين يستصعبون حفظ التاريخ. والذين ناقضهم السارد بأصحاب الذاكرة "الصافية"؛ أي الزيونيين الذين يُعتبرون مثالا ممتازا لمن يحسنون استخدام الذاكرة، مما يعني أنهم متصالحون مع ذواتهم، ولا يسمحون بدخول الوسطاء الحائلين بين الأنا وتاريخها.

يتشخص على مستوى الرواية مرض "هشاشة" الهوية ذو الصلة المباشرة بموضوع الذاكرة الكامنة وفق ما نظر له (بول ريكور)، والذي تتسبب فيه عوامل ثلاثة هي : العلاقة بالزمن، و الآخر، و العنف.

يلعب الزمن / الماضي دورا محوريا في قيام مفهوم واضح للذاكرة، فهو المجال الذي يتم فيه التعرف على الذات من خلال منحه لنا إمكانية أخذ صورة عما حدث فعلا، وحين تنضاف الانطباعات التي تصاحب الأحداث في صيرورتها عبر الزمن، يأخذ الأمر معنى "الذاكرة"، فالذاكرة هي الأحداث مقرونة بالانطباعات التي خلفتها في الذوات التي تناقلت من زمن إرثا ثقافيا، وهكذا تمثل الذاكرة الجمعية ذخيرة مشتركة توحد مجتمعا ما وتميزه عن غيره. وتكون الذاكرة الجمعية محافظة على التجربة التي تم تقاسمها، وقادرة على حمايتها من التشويه والتزييف، كلما زاد حظها من القوة والسلامة، وهنا يتبدى معنى الضمير "نحن" في المقطع السردي السابق "نحن أهل الزيوان"، حيث تتجلى فعالية الاحتفاء الجماعي بحدث تاريخي ما، ذلك أن الروح الجماعية تمنح الأحداث الماضية صفة الحميمية والشاعرية وتجعل من الذاكرة موضوعا للمشاركة.

يسعى هذا المستوى من الاستخدام إلى إثبات حق الذات/النحن في الاعتراف بها وبتاريخها، وباستحضار الجرائم التي اقترفت في حقها، فالذاكرة "الصافية" المنزهة عن الأمراض، والخارجة عن سلطة الإكراهات والإيديولوجيات الممارسة من طرف المؤسسة، تنأى ب (المربط) وبأهل منطقته، عن أن يكونوا بوقا يسمع صوت الآخر ويقمع صوته الداخلي؛ ف "الآخرون" لا يستحقون التضحية ونكران الذات، وإن الذي يستحق العناء حقا، هو الذات عينها، فهي في حاجة ماسة إلى التخفف من آثار الكبت المدمرة لصحتها النفسية الجماعية كما الجمعية .

هكذا يتم تحويل فعل التذكر إلى فعل جماعي هدفه التصحيح والمداواة معا.

## 6 . الخاتمة :

هكذا رأينا كيف حول السارد السؤال المعلن الموجه لمعرفة آثار المشروع الاشتراكي على قصره الزيواني وثقافته التواتية، ومجتمعه الصحراوي، إلى مطية لممارسة فعل أعمق وأبعد من أن يكون تحليلا سوسيوثقافيا أو انثروبولوجيا للمجتمع التواتي، وبالنتيجة وقفنا على أعتاب عمل سردي مفكر في تاريخ المنطقة، وفي هويتها، و في ذاكرتها، وفي صورتها عند الآخر. فقد كان الغرض المقصود هو تخلص تاريخ الذات التواتية من الأوهام ، وتزويدها بقاعدة معرفية رصينة تعينها على استعادة تاريخها الحقيقي الصحيح وإحياء ذاكرتها المغيبة ، وفي المحصلة يمكننا إحصاء النتائج التالية :

- غير السارد أجدية الخطاب الصحراوي، وحوله من خطاب عجائبي منغلق معزول، إلى خطاب منفتح ومتعقل، متسامح مع نفسه و متصالح مع الآخر.

- نبعت الرواية عن رؤية للعالم قوامها أن تقدير الذات، لا يعني بالضرورة إقصاء الآخر ونبذه، كما لا يعتبر تضخيما ولا نرجسية . بل هو آلية نفسية تحمي الوعي الجمعي من الانكسار و الانهزام غير المبرر.

- عبر فعل الكتابة، حقق الروائي هدفه في اصطناع سردية بديلة للصحراء، تتخطى سكونية السائد وجبروته وتقيم أركان صورة جديدة لتاريخها، لا يغيب عنه العلم ولا الثقافة ولا الحضارة ولا التمدن.

- فعّلت الرواية خطاب الذاكرة، وقدمته على أنه خطاب حيوي وفاعل في مسعى استعادة الذات وتصحيح التاريخ، و تحريرهما من التحيزات والأهواء.

. من خلال الميثاق/ الوصية الذي تضمنه المحكي، أحالت الرواية على ميثاق الحياة الجديدة السعيدة التي تتبنى قيم الأخذ والعطاء والسلم والسلام والحوار. وشددت على ضرورة التمكين له وإقامته بديلا لخطاب الإقصاء و الاستبعاد، تمهيدا لمباشرة دورة حياتية أخرى عنوانها الأنسنة والعيش المشترك.

#### 7. قائمة المراجع:

- بول ريكور، سعيد الغانمي، و رحيم فلاح. (2006). *الزمان و السرد / الحبكة و السرد التاريخي*. لبنان، لبنان : دار الكتاب الجديد المتحدة.
- بول ريكور، و جورج زيناتي. (2009). *الذاكرة، التاريخ، النسيان*. لبنان، لبنان : دار الكتاب الجديد المتحدة.
- روبول وليفي، و عمر اوكان. (2002). *لغة التربية / تحليل الخطاب البيداغوجي*. بيروت، لبنان: إفريقيا الشرق.
- ريكور، زيناتي. (2009). *التاريخ . الذاكرة . النسيان . الأردن* : دار فضاءات.
- ميلان كونديرا، و بدر الدين عرودكي. (2001). *فن الرواية . بيروت، لبنان: إفريقيا الشرق*.
- هنري لوفيفر، و فاطمة الجبوشي. (2002). *نهاية التاريخ*. دمشق، سوريا: منشورات وزارة الثقافة.
- وابت هايدن، و نايف الياسين. (2017). *محتوى الشكل / الخطاب السردى و التمثيل التاريخي*. المنامة، البحرين : هيئة البحرين للثقافة و الآثار.